
سورة سبأ

بسم الله الرحمن الرحيم

(سورة سبأ)[1]

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١ ﴾

﴿ الْحَمْدُ للَّه .. ۝١ ﴾ [سبأ] جملة قائلُها الحق سبحانه ، فهل قالها لنفسه أم قالها ليُعلِّمنا نحن أنْ نقولها ؟ قالها ليُعلِّمنا . والحمد أنْ تأتى بثناء على مستحق الثناء بالصفات الجميلة . ومقابله : الذم ، وهو أنْ تأتى لمستحقٍّ الذم بالصفات القبيحة ، وتنسبها إليه .

وأنت قد تحمد شيئاً لا علاقةَ لك به ، لمجرد أنه أعجبك ما فيه من صفات ، فاستحق فى نظرك أنْ يُحمد ، كأن تحمد الصانع على صَنْعة أتقنها مثلاً ، وإنْ لم تكُنْ لك علاقة بها .

---

(١) سورة سبأ هى السورة رقم (٣٤) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ٥٤ آية ، نزلت بعد سورة لقمان وقبل سورة الزمر ، وهى السورة رقم ٥٧ فى ترتيب النزول ، قال القرطبى فى تفسيره (٥٥٢٧/٨) « مكية فى قول الجميع ، إلا آية واحدة اختلف فيها ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ .. ۝٦ ﴾ [سبأ] فقالت فرقة : هى مكية ، والمراد المؤمنون أصحاب النبى ﷺ قاله ابن عباس . وقالت فرقة : هى مدنية ، والمراد بالمؤمنين من أسلم بالمدينة ، كعبد الله بن سلام وغيره . قاله مقاتل » .

إذن : فالحمد مرة يكون لأن المحمود فيه صفات تستحق الحمد ، وإنْ لم تَصلْ إليك ، فكيف إذا كانت صفات التحميد والتمجيد والتعظيم أثرها واصلَ إليك ؟ لا شكَّ أن الحمد هنا أوجب .

لذلك نقول : كل حمد ولو توجَّه لبشر عائد فى الحقيقة إلى الله تعالى ؛ لأنك حين تحمد إنساناً إنما تحمده على صفة وهبها الله له ، فالحمد على إطلاقه ولو لمخلوق حَمْدٌ لله .

وكلمة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (١)﴾ [سبأ] وردت فى القرآن ثمان وثلاثون مرة ، وخُصَّتْ منها فى فواتح السور خمس مرات : فى الفاتحة ، والأنعام ، والكهف ، وسبأ ، وفاطر .

والحق سبحانه بدأ بالحمد ؛ لأنه بدأ خَلْقه من عدم فله علينا نعمة الخَلْق من عدم ، ثم أمدَّنا بمقومات الحياة فوفَّر لنا الأقوات التى بها استبقاء الحياة ، ثم التناسل الذى به استبقاء النوع ، هذا لكيان الإنسان المادى ، لكن الإنسان مطلوب منه حركة الحياة ، وهو يعيش مع آخرين فلا بُدَّ أنْ تتساند حركاتهم لا تتعاند ، لا بُدَّ أن تنسجم الحركات وإلا لتفانى الخَلْق .

وهذا التساند لا يتأتَّى إلا بمنهج يُحدِّد الحركات ، ويحكم الأهواء ، وإلا لجاء واحد يبنى ، وآخر يهدم . هذا فى الدنيا ، أما فى الحياة الآخرة فسوف يُعدُّنا لها إعداداً آخر ، ويعيدنا إلى خير مما كنا فيه ؛ لأننا نعيش فى الدنيا بالأسباب المخلوقة لله تعالى ، أما فى الآخرة فنعيش مع المسبِّب سبحانه مع ذات الحق .

نحن فى الدنيا نزرع ونحصد ونطبخ ونخبز ونغزل .. إلخ ، هذه أسباب لا بُدَّ من مزاولتها ، لكنك فى الآخرة تعيش بكُنْ من المسبِّب ، فى الدنيا تخاف أنْ يفوتك النعيم أو تفوته أنت ، أما فى الآخرة

فنعيمها بَاقٍ لا يزول ولا يحول ، فى الدنيا تتمتع على قَدْر إمكاناتك ، أما فى الآخرة فتتمتع على قَدْر إمكانات ربك .

فالحق سبحانه أوجدنا من عدم ، وأمدنا من عُدْم ، ووضع لنا المنهج الذى يحفظ القيم ، ويُنظِّم حركة الحياة قبل أنْ تُوجد الحياة ، فقبل أنْ يخلقك خلق لك كالصانع الذى يُحدِّد مهمة صنعته قبل صناعتها ، وهل رأيتم صانعاً صنع شيئاً ، ثم قال : انظروا فى أىِّ شىء يمكن أن يستخدم ؟

لذلك قال تعالى : ﴿ الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) ﴾ [الرحمن] فالمنهج المتمثل فى القرآن وُضع أولاً ليحدد لك مهمتك وقانون صيانتك ، قبل أنْ تُوجَد أيها الإنسان .

والمتأمل لآيات الحمد فى بدايات السور الخمس يجد أنها تتناول هذه المراحل كلها ، ففى أول الأنعام : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) ﴾ [الأنعام]

تكلَّم الحق سبحانه عن بَدْء الخَلْق ، ثم قال : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ .. (٢) ﴾ [الأنعام] وهذا هو الإيجاد الأول .

ثم فى أول الكهف يذكر مسألة وَضْع المنهج والقيم : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (١) ﴾ [الكهف]

هذا هو القانون الذى يحكم الأهواء ، ويُنظِّم حركة الحياة لتتساند ولا تتعاند .

وفى أول سورة سبأ التى نحن بصددها يذكر الحمد فى الآخرة : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الآخِرَةِ .. (١) ﴾ [سبأ] وحين تنظر إلى الحمد فى الآخرة تجده حَمْداً

مركباً مضاعفاً ؛ لأنك فى الدنيا تحمد الله على خَلْق الأشياء التى تتفاعل بها لتعيش بالأسباب ، لكن فى الآخرة لا توجد أسباب ، إنما المسبِّب هو الله سبحانه ، فالحمد فى الآخرة أكبر حَمْداً يناسب عَيْشَك مع ذات ربك سبحانه .

وفى أول فاطر : ﴿ الْحَمْدُ للَّه فَاطِرِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُوْلِى أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِى الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ .. ① ﴾[فاطر]

نحمد الله على القيم ، وعلى المنهج الذى وضعه لنا الحق سبحانه بواسطة الملائكة ، والملائكة هم رسل الله إلى الخَلْق ، ومنهم الحفظة ، ومنهم المدبِّرات أمراً التى تدبر شئون الخَلْق ، ومنهم مَنْ أسجدهم الله لك .

ثم جاءت أم الكتاب ، فجمعت هذا كله فى : ﴿ الْحَمْدُ للَّه رَبِّ الْعَالَمِينَ ② ﴾ [الفاتحة] والربّ هو الخالق الممدّ ﴿ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ ③ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④ ﴾ [الفاتحة] أى : فى الآخرة ، ثم ذكرت وجوب السير على المنهج ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ⑦ ﴾ [الفاتحة]

ولأنها جمعتْ البداية والنهاية ، والدنيا والآخرة سُمِّيت فاتحةَ الكتاب ، وسُمِّيت المثانى ، وسُمِّيت أم القرآن .

فقوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ للَّه .. ① ﴾ [سبأ] علَّمنا الله تعالى أن نقولها ؛ لأن الناس مختلفون فى المواهب ، وفى الملَكات ، وفى حُسْن الأداء ، وفى صياغة الثناء ، فلا يستوى فى الحمد والثناء الأديب والأُمىُّ الذى لا يجيد الكلام ؛ لذلك قال الله لنا : أريحوا أنفسكم من هذه المسألة ، وسوف أُعلمكم صيغة يستوى فيها الأديب الفيلسوف مع راعى الشاة ، وسوف تكون هذه الصيغة هى أحبّ صيغ الحمد إلىَّ ، هذه الصيغة هى ﴿ الْحَمْدُ للَّه .. ① ﴾ [سبأ]

لذلك جاء فى الحديث قول سيدنا رسول الله فى حمد ربه ، والثناء عليه : « سبحانك لا نحصى ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك »[1] فحين أقول خطبة طويلة فى حمد الله والثناء عليه ، وتقول أنت : الحمد لله لا أقول لك قصَّرت فى حمد ربك ، وكأن هذه الصيغة وتعليمها لنا نعمة أخرى تستحق الحمد ؛ لأنها سوَّتْ الجميع ، ولم تجعل لأحد فضلاً على أحد فى مقام حمد الله والثناء عليه .

وحين تحمد الله على أن علَّمك هذه الصيغة ، بماذا تحمده ؟ تحمده بأن تقول الحمد لله . إذن : هى سلسلة متوالية من الحمد لا تنتهى ، الحمد لله على الحمد لله ، ومعنى ذلك أنْ تظل دائماً حامداً لله ، وأنْ يظلَّ الله تعالى دائماً وأبداً محموداً .

كما قُلْنا : إن اختلاف المواقيت فى الأرض واختلاف المشارق والمغارب إنما جُعلَتْ لتستمر عبادة الله لا تنقطع أبداً فى كل جزئيات الزمن ، ففى كل لحظة صلاة ، وفى كل لحظة الله أكبر ، وفى كل لحظة أشهد ألا إله إلا الله ، وفى كل لحظة أشهد أن محمداً رسول الله... إلخ لتظل هذه الألفاظ وهذه العبادات دائرة طوال الوقت ، فالكون كله يلهج بذكْر الله وعبادة الله فى منظومة بديعة ، المهم مَنْ يُحسِن استقبالها ، المهم صفاء جهاز الاستقبال عندك .

وقوله سبحانه ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ .. ①﴾ [سبأ] بيَّنَّا أن الحمد فى الآخرة أكبر وأعظم من الحمد فى الدنيا ؛ لأنك فى الدنيا تعيش بالأسباب ، أما فى الآخرة فتعيش مع ذات المسبِّب سبحانه ،

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥٨/٦ ، ١٢٠) ومسلم فى صحيحه (٤٨٦) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش ، فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد وهما منصوبتان وهو يقول : « اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

فى الدنيا نعيم موقوت ، وفى الآخرة نعيم باق ، فى الدنيا فناء ، وفى الآخرة بقاء ؛ لذلك قال سبحانه عن الآخرة : ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾ [يونس]

وقال سبحانه حكايةً عن المؤمنين فى الآخرة : ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤)﴾ [الزمر]

وقالوا : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ..(٤٣)﴾ [الأعراف]

فإنْ قُلْت : فما وجه الحمد فى أن الله تعالى يملك السموات والأرض ؟ نقول : فَرْق بين أنْ يخدمك فى الكون مَا لا تملك ، وبين أنْ يخدمك ما تملك ، فالعظمة هنا أنك تنتفع هنا بما لا تملك ، فالسموات والأرض ملْك لله ، ومع ذلك هى فى خدمتك أنت ، وليست العظمة من أنْ يخدمكَ ما تملكه .

لذلك قالوا لأحد الناس : لماذا لا تشترى لك سيارة ؟ قال : والله الإخوان كثيرون ، وكلهم عندهم سيارات ، وكل يوم أركب سيارة واحد منهم ، ولا يغرمنى هذا شيئاً . إذن : انتفاعك بما يملك الغير أعظمُ من انتفاعك بما تملك أنت ، وملْك الله جُعل لصالحنا نحن ، وهذه تستحق الحمد ، فاللهم لا تحرمنا نعمك .

ملحظ آخر أن الحق سبحانه يريد أن يُطمئنَ العبادَ ، فمُلْك السموات والأرض لله وحده ، ولو كانت لغيره لمنعنَا منها ، فكأن ربك يقول لك : اطمئن فهذا ملْكى وأنا ربك ولن أتخلى عنك أبداً ، وليس لى شريك ينازعنى ، فيمنع عنك خيراتى ، فأنا المتفرِّد بالملْك والسلطان .

لذلك ، فالحق سبحانه حين يقول للشيء : ﴿ كُن فَيَكُونُ (٤٧) ﴾ [آل عمران] ما قال (كُنْ) إلا لأنه سبحانه يعلم أنه لا يستطيع ألاَّ يكون ، والدليل قوله تعالى عن الأرض ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) ﴾ [الانشقاق] أى : أصغتْ السمع ، وحَقَّ لها ذلك ، فما قال سبحانه لشيء كُنْ إلا وهو واثق أنه لا يخرج عن أمره .

لذلك سبق أنْ قُلْنا : إن الحق سبحانه حين طلب منا أنْ نشهد أنه لا إله إلا هو شهد بها لنفسه أولاً ، فقال : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. (١٨) ﴾ [آل عمران] وهذه شهادة الذات للذات ، ولذلك تصرَّف سبحانه فى الملك تصرُّف مَنْ لا شريكَ له ، فلم يقُلْ شيئاً أو يحكم حكماً ، ثم خاف أنْ ينقضه أحد أو يعدله .

ثم شهدتْ بذلك الملائكة ، ثم شهد بذلك أولو العلم من عباده ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ .. (١٨) ﴾ [آل عمران]

فشهادة الله شهادة الذات للذات ، وشهادة الملائكة شهادة المشهد ، وشهادة أُولى العلم شهادة العلم والدليل .

ونلحظ أيضاً أن الحق سبحانه قال : ﴿ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ .. (١) ﴾ [سبأ] فكرَّر الاسم الموصول (ما) ولم يقُلْ له ما فى السموات والأرض ، كما جاء فى قوله سبحانه فى التسبيح : مرة : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ .. (١) ﴾ [الجمعة]

ومرة : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢٤) ﴾ [الحشر]

وفَرْق بين التعبيرين ؛ لأن هناك خَلْقاً مشتركاً بين السماء والأرض ، وهناك خَلْق خاص بالسماء ، وخَلْق آخر خاص بالأرض ،

فإنْ أراد الكل قال : ﴿مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢٤)﴾ [الحشر] ، وإنْ أراد الاختلاف كلاً فى جهته ، قال ﴿مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ .. (١)﴾ [سبأ]

والسموات والأرض ظرف لما فيهما من خيرات ، والذى يملك الظرف والمكان يملك المظروف فيه ، فالحيز هنا مشغول .

ثم يقول سبحانه تذييلاً لهذه الآية ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١)﴾ [سبأ] الحكيم : هو الذى يضع الشىء فى مكانه وموضعه المناسب ، ولا يتأتّى هذا إلا لخبير يعلم الشىء ، ويعلم موضعه الذى يناسبه ؛ لذلك قال سبحانه ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١)﴾ [سبأ] الذى لديه خِبْرة بدقائق الأشياء وبواطنها .

ثم أراد سبحانه أنْ يعطينا نموذجاً لهذه الحكمة ولهذه الخبرة ، فقال سبحانه :

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ (٢) ﴾

معنى ﴿يَلِجُ .. (٢)﴾ [سبأ] يدخل ، ومنه قوله تعالى : ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ .. (١٣)﴾ [فاطر] يعنى : يُدخل كلاً منهما فى الآخر ، فزيادة الليل تنقص من النهار ، وزيادة النهار تنقص من الليل ؛ لذلك نرى اختلاف المواقيت .

لكن ، ما الذى يدخل فى الأرض - فى حدود ما تراه أنظارنا - ؟ هناك أشياء تدخل فى الأرض لا دَخْلَ لنا بها كماء المطر مثلاً حين ينزل من السماء ، نأخذ منه حاجاتنا ، ويتسرَّب منه جزء فى باطن الأرض ، كما قال تعالى : ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِى الأَرْضِ .. (٢١)﴾ [الزمر]

ويدخل فى الأرض الحبة التى نزرعها ، فينشأ عنها الاقتيات الذى يضمن لنا بقاء الحياة ، وهذا الاقتيات يأتى من مضاعفة الحبة إلى أضعاف كثيرة ، كذلك يدخل فى الأرض الميِّت الذى نستودعه الأرضَ بعد أنْ يموت ، ولك أنْ تلحظ وجه الشبه بين الحبة تزرعها ، والميت تدفنه فى ضوء قوله تعالى : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥) ﴾ [طه]

فكما أن الحبة أنبتتْ سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة ، كذلك يجب أنْ نقيس المتواليات الذهنية فنقول كذلك حين أدخل أو أدفن فى الأرض بعد الموت : أخرج بحياة أخرى أكثر نماءً من حياتى فى الدنيا ، وأكثر خَيْراً فضلاً عما سترَتْه الأرض من سَوْءاتى .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ .. (٢) ﴾ [سبأ] ما الذى ينزل من السماء ؟ ينزل منها المطر لاستبقاء الحياة ، وبالماء حياة كل شىء حى ، هذا فى مادة تكوينك ، أما فى حياتك الروحية فتنزل الملائكة بالقيم وبالمنهج الذى به تحيا الأرواح والقلوب ، وتنزل الملائكة المدبِّرات أمراً ، التى تدبر شئون الخلائق ، والتى قال الله فيها : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ[1] مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١) ﴾ [الرعد]

والبعض لا يفهم معنى الآية ، فيقول : كيف تحفظه الملائكة من أمر الله ؟ يريدون أن أمر الله ينبغى أنْ يُنفذ ، فكيف يحفظونه منه ؟

(١) المعقبات : ملائكة الليل والنهار ، لأنهم يتعاقبون ، فكأن ملائكة النهار تحفظ العباد ، فإذا جاء الليل جاء معه ملائكة الليل وصعد ملائكة النهار ، فإذا أقبل النهار عاد من صعد ، وصعد ملائكة الليل ، كأنهم جعلوا حفظهم عُقباً أى نُوَباً . [لسان العرب ـ مادة : عقب] .

والمعنى : يحفظونه حفْظاً صادراً من أمر الله ، ليس تطوُّعاً من عندهم[1] .

والحق سبحانه يُرينا قدرته فى إنزال المطر حينما نُجرى عملية تقطير الماء فى المعامل والأجزاخانات ، انظر كم يتكلف كوب الماء المقطر ، وكم يأخذ من الوقت والجهد ، أما المطر فتُقطِّره لك قدرة الله دون أنْ تشعر أنت به ، فحرارة الشمس تُبخِّر الماء الذى يُكوِّن السحب ، ثم تسوقه الرياح إلى حيث شاء الله له أنْ ينزل ، ومن حكمته تعالى أنْ جعل ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ماءً لتتسع مساحة البخر ، فيكفى المطر حاجة الأحياء .

ومثَّلْنا لهذه الظاهرة بكوب الماء الذى تتركه لمدة شهر ، فلا ينقص إلا عدة سنتيمترات ، أما إنْ سكبْتَه فى أرض الحجرة فإنه يجفّ قبل أنْ تغادرها ، لماذا ؟ لأنك وسَّعْتَ المساحة التى يتبخر منها الماء .

وماء المطر هو الماء العَذْب الزلال الذى يشرب منه الإنسان والحيوان والطير ، ونسقى منه الزرع ومشارف الأرض ، وما تبقَّى يسلكه الله فى جوف الأرض لحين الحاجة إليه ، فالمطر آية من آيات الله الدالة على قدرته تعالى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ **وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ..** (٢) ﴾ [سبأ] أى : يصعد ، وقد أشار القرآن إلى هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ..** (١٠) ﴾ [فاطر] أى : تصعد آثار التكليف المنهجى من الله تعالى .

---

(١) عن ابن عباس : ذلك الحفظ من أمر الله بأمر الله . أخرجه أبو الشيخ . وعنه أيضاً : بإذن الله . أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم . وعن سعيد بن جبير : حفظهم إياه بأمر الله . أخرجه ابن جرير . وذكر هذه الآثار السيوطى فى الدر المنثور (٤/٦١٢) .

لكن نلحظ فى أسلوب ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا .. ②﴾ [سبأ] استخدام حرف الجر (فى) ولم يَقُلْ يعرج إليها ، نعلم أن الحرف يدل على معنًى فى ذاته ، لكن هذا المعنى لا بُدَّ له من ضميمة شىء إليه ، ليعطى معنى يفهم ، فالحرف (فى) يدل على الظرفية ، كما تقول : ماء فى الكوب ، أمَّا لو قلت (فى) مستقلة بذاتها ، فإنها لا تدلُّ على شىء .

والعلماء حينما استقبلوا كثيراً من الأساليب وجدوا بها حروفاً ظَنُّوا أنها زائدة ، أو أنها بمعنى حرف آخر ، كما قالوا فى معنى : ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ②﴾ [سبأ] أن (فى) هنا بمعنى (إلى) ، لكن لماذا عدل الأسلوب عن (إلى) إلى (فى) ؟ إذن : لا بُدَّ أنها تحمل معنى الظرفية .

وللتوضيح نذكر ما قُلْنا فى قوله تعالى : ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ⑦١﴾ [طه] البعض قال أى : على جذوع النخل ، وهذا فَهْم غير دقيق عن الله ؛ لأن (فى) هنا تعطينى المعنيين : معنى (على) ومعنى (فى) .

فالتصليب صَلْب شىء على شىء ، وهذا المعنى تؤديه (على) ، لكن فيه قصور ، فإنْ أردتَ (على) فحسب ، فينبغى أنْ تقول : لأصلبنكم على جذوع النخل تصليباً قوياً ، بحيث تدخل أجزاء المصلوب فى المصلوب عليه . إذن : المعنى الكامل للتصليب لا تؤديه إلا (فى) .

خُذْ مثلاً عود كبريت وضَعْه على يدك ، أو على أصبعك ، والْفُفْ عليه خيطاً خفيفاً ، فى هذه الحالة الخيط فقط يثبت العود ، أما إذا

شـددْتَ عليـه الخـيط بقـوة ، فـإن العود يـدخل فى الجلد حـتى يكاد يخـتـفى بداخله ، هذا هو الـتصلـيب المـراد أنْ تشـدَّ المـصلوب على المصلوب عليه بقوة بالمسامير أو الحبال أو نحوه .

لذلك قـال سـبحـانه : ﴿فِي جُذُوعِ النَّخْلِ .. (٧١)﴾ [طه] ولم يقُلْ على جذوع النخل ؛ لأن (فى) أدَّتْ معنى الاستعلاء والظرفية معاً .

كذلك فى ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا .. (٢)﴾ [سبأ] ولم يقُلْ : وما يعرج إليـهـا ؛ لأن إلى لا تؤدى المـعنى المطلوب ، فـ (إلـى) تدل على الغاية ، كـما تقـول : سافرت مـن القاهرة إلى الإسكندرية . والسـماء ليست هى غـاية صعود الكَلِم الطيب ، إنمـا غايته ومنتهـاه إلى الله عز وجل ، ومـا السماء إلا طـريق يُوصل إلى المنتهى الأعلى ، وسـبق أنْ قُلْنا : إن السماء هى كل مَا علاك .

وهذا المـعنى لحـرف الـجـر واضح كـذلك فى قـوله تعـالى : ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. (١٣٣)﴾ [آل عمران] فاستخدم (إلى) لأن المغفرة هى غاية ما يَسْعى إليه المؤمن ويسارع .

وقال : ﴿أُولَـٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. (٦١)﴾ [المؤمنون]

ولم يقل : إلى الخيرات ؛ لأن الخيرات ليست هى الغاية ، إنما هى مراتب يتـرقَّى فيها المـؤمن ويتعالى ، كلما وصل إلى خـير تطلَّع إلى أَخْيَر منه ، فكأن الخيرات ظرف يسير فيه لا إليه .

كـذلك لمـا تكلَّم الحق سـبحـانه عن الذين كـذَّبوا الرسل ، قـال : ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ .. (٩)﴾ [إبراهيم]

البـعض يقول : أى : إلى أفـواههم ، لا لأن (فى) تحمل مـعنى المبالغة فى رَدِّ المنهج الذى جاء به الرسل ، فالمعنى أن الرسل حينما

جاءوا بالمنهج لم يقبله المكذّبون وقالوا لهم : وفروا عليكم كلامكم ، يعنى : لن يُجدى معنا شيئاً ، وجعلوا أيديهم داخل الأفواه ، وعَضُّوا عليها من الغيظ مما سمعوا من الرسل ، وهذا المعنى لا تؤديه لفظة : إلى أفواههم .

ثم هو سبحانه : ﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) ﴾ [سبأ] صفة الرحيم أى : الذى يمنع وقوع الضُّرِّ بدايةً ، كما قال سبحانه : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. (٨٢) ﴾ [الإسراء]

كلمة ﴿ شِفَاءٌ .. (٨٢) ﴾ [الإسراء] تعنى : أنه أصابك مرض نشأ من الغفلة ، فجاء القرآن ليُذكِّرك ويُنبِّهك ويشفى نفسك من هذه الغفلة ، فإنْ لم توجد الغفلة كان القرآن رحمة تمنع حدوث الداء من البداية . و (رحيم) صيغة مبالغة من الرحمة .

كذلك ﴿ الْغَفُورُ (٢) ﴾ [سبأ] صيغة مبالغة من المغفرة ، والحق سبحانه كثيراً ما يؤكد على هذه الصفة ؛ لأنه سبحانه خلق الإنسان ، ويعلم أنه لن يسير دائماً على الصراط المستقيم ، ولا بُدَّ أن ينحرف يوماً ما عن المنهج القويم ؛ لذلك قال ﴿ يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ .. (١٥) ﴾ [المائدة]

وقلنا : إنه لولا صفة الرحمة والتوبة والمغفرة لتمادى المذنب فى الذنوب ، ويئس أنْ يعود إلى الطريق المستقيم ، وهذا الذى أسميناه (فاقد) وبه يشقى المجتمع كله ، لكن إنْ عرف أن له رباً يغفر الذنب ويقبل التوبة ، فإنه يُقبل عليها ويتوب ولم لا ، وقد تكفَّل الله له بمغفرة ذنوبه إنْ تاب وأناب ؟

إذن : شرع اللهُ التوبةَ ليرحم الخَلْق كلهم ، ويُقدِّم لهم جميلاً ،

فحين يتوب على المذنب يرحم المجتمع من شرِّه ، ويرحمه هو من آثار ذنوبه ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا .. (١١٨)﴾ [التوبة] أى : شرع لهم التوبة ليفتح لهم مجال التراجع وطريق العودة إلى الله ، حتى لا يكون هناك شراسة وتمَادٍ فى الشر ، ولا ينقلب المذنب إلى طاغوت .

وحين نتأمل قوله تعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤)﴾ [إبراهيم] نجد صَدْر الآية ورد بنفس اللفظ في موضعين ، لكن العَجُز مختلف ، ففى آية : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾ [إبراهيم] وفى الأخرى : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨)﴾ [النحل]

عندما وقف بعضهم عند هذه الآية اعترضوا ، فقالوا : كيف تُعَدُّ النعمة ، وهى واحدة ؟ ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤)﴾ [إبراهيم] والرد : أن النعمة التى تراها واحدة فى ظاهرها فى طَيِّها نِعَم شتى ، وقد وَضُح لنا هذا بعد أنْ تقدَّمت العلوم وظهر علم عناصر الأشياء ، فالتفاحة مثلاً تراها فى ظاهرها نعمة واحدة ، لكن علم العناصر يُبيِّن لنا أن بها نعَماً شتى ، وعناصر وفوائد مختلفة ، فهى نعمة فى طَيِّها نِعَم .

والنعمة تقتضى : نعمة ، ومُنْعماً ، ومُنْعَماً عليه ، فالنعمة فى ذاتها من الكثرة بحيث لا تُعَدُّ ولاَ تُحصى ؛ لذلك استخدم كلمة (إنْ) الدالة على الشك ، ولم يقل مثلاً : إذا عددتم نعمة الله ؛ لأن هذا مجال لا يطمع فيه أحد ، ونِعَم الله ليست مظنة الإحصاء .

لذلك لم يُقْدِم أحد على محاولة عَدِّ نِعَم الله حتى بعد أنْ وُجدت جامعات وكليات متخصصة فى الإحصاء ، حاولت إحصاء كل شىء إلا